ما العالم سوى هامش!
(فايز محمود كما عرفته)

هاشم غرايبة/ الأردن

"شُرُم بُرُم"

تَوَطَّدَت صداقتي مع فايز محمود في سجن المحطة...

في سجن المحطة كان فايز حالة فريدة: سجين سياسي لا مُنتمي! وقد حكمت عليه المحكمة العسكريّة بالسجن خمس سنوات بتهمة التعاون مع جهات خارجيّة...

فايز حين تعاون مع الثورة الفلسطينية لم ينتمِ لأيٍّ من فصائلها، كان يقول:

"كنتُ مستمتعًا بالتهميش، لأنّ أحدًا لم يكن يسألني عن شيء، وكان ذلك يساعدني في القراءة والكتابة بلا إزعاج ولا منغِّصات".

بعد أن غادر السجن كان يظنّ أنّ البؤس في السجن. ولكنه وجده أقلّ بؤسًا من العالم الشاسع... فسَجَنَ نفسه. كلمة السرّ التي اعتمدها فايز محمود للمرور إلى عالمه.. أسَرَّ بها لأصدقائه كي يفتح لهم باب عزلته التي اختارها في المفرق إثر خروجه من السجن... أخبرني أنه وضع "برشًا" بدل السرير في غرفته، وثبَّت على الحائط رفًا للكتب بجانبه، [تمامًا كما كان في غرفة 14 بجانبك]... لكن كلمة السرّ هذه -ككل أسرار فايز محمود- ما لبثت أن صارت على كل لسان... وما لبث فايز أن غادر عزلته وانتقل للسكن في عمّان، وصارت كلمة "شُرُم بُرُم" تُلقى لفايز من أصدقائه مثل الـ"مرحبا" وصارت تعبيرًا مختصرًا عن الحال والأحوال العامّة والخاصّة عند فايز... حتى صار زمن فايز وزماننا كله "شرم برم"!!

بعد خروجه من السجن ظلّ فقدان المعنى والشعور باللاجدوى يلاحقه، فكتب فايز مؤلفه الشهير (العبور بدون جدوى): السجن يردّنا إلى الحقيقة العارية؛ أننا حين نفقد المعنى والجدوى، نتحوّل إلى معتقلين. يستوي في

ذلك السجّان والسجين، والمديرون والأساتذة والوزراء... ما العالم سوى هامش!

ذكريات مع فايز محمود

في العام 1973 كنتُ طالبًا في بغداد... وفي مقرّ مجلة "الثقافة الجديدة" العراقيّة ناولني الرفيق عبدالرزاق الصافي كتاب "أنت منذ اليوم"... وسألني: هل تعرف هذا الكاتب؟

في العطلة الصيفية حضرتُ إلى عمّان بهدف مقابلة تيسير سبول... كانت اليافطة التي صادفتني لصحيفة "عمّان المساء" وسط البلد مفتاحي العشوائي للسؤال عن تيسير... هناك كانت الزميلة تريز حداد تجلس خلف المكتب وعندها فايز محمود، الذي رحّب بحرارة بطالبٍ جامعيّ جاء من حوّارة إلى عمّان ليتعرّف على تيسير. كان الوقت عصرًا... نزلتُ بمعيّة فايز إلى بُنّ شهرزاد بجانب درج الكلحة... شربنا الشاي بانتظار تيسير... قال فايز: "عادةً يأتي هنا في هذا الوقت".

هذا اللقاء الفريد كان مفتاحًا لصداقة مديدة مع فايز. قابلتُه مرة ثانية في الرَّوشة ببيروت بعد أن ترك عمله بالإذاعة الأردنيّة والتحق للعمل بإذاعة الثورة الفلسطينية... كنتُ يساريًّا جدًا وصنَّفتُ فايز بيني وبين نفسي "كاتب يميني"!

وشاءت الصُّدف أن نتجاور في سجن المحطة عام 1978.. ليست أيّ جيرة: "البرش لزق البرش"... وتوطّدت صداقتي معه.

ذكريات لا تُنسى مع غرفة (14) شبك (1) في سجن المحطة... كان عددنا في الغرفة 20 سجينًا وعديد السياسيين سكان شبك(1) (370 معتقلًا سياسيًا).

عندما أذكر فايز محمود أتذكّر معه الآن رأفت العزام وعدنان الأسمر وعماد ملحم وسعود قبيلات ومحمد أبو شمعة وأسامة شنّار وحسين أبو غربية وراشد وادي وهشام الفاهوم وماجد الروسان وعلي عامر و... [شيخنا وقائدنا النبيل نبيل جعنيني- والوصف لفايز محمود].

كنّا نصدِر مجلة حائط للسجن يكتب فيها (من الكتاب الذين استمروا في المضمار): فايز محمود وحمادة فراعنة وزياد الجيوسي وسعود قبيلات ورأفت العزام وأنا، بالإضافة للسجناء من التوجُّهات كافة ومن مختلف القضايا التي يُسجَن عليها الناس... وكان يرأس تحريرها نبيل جعنيني.

كاتب السجن الأول

لم يكتفِ فايز محمود بمجلّة السجن العامّة، بل دعاني ورأفت العزام لإصدار نشرة فكاهية نقدية ساخرة أسماها (صياح الديك) نكتبها وننسخها مستعينين بورق الكربون لتكثير النسخ، لازِمَتها: "اصدح كوككووو، وناولها لزميلك"... ولاقت رواجًا واهتمامًا في إطار شبك(1).. ولا بدّ أن أذكر فضل فايز محمود عليّ شخصيًّا بترغيبي بالفلسفة، فقد كانت مكتبته الخاصة مختلفة عن الصبغة العامة لمكتبة الغرفة ذات الصبغة اليسارية، ومختلفة عن المكتبة العامّة للسجن ذات الصبغة التراثية... كنّا في سجن المحطة نعيش حياة موازية، لكنها موّارة بالحياة وراء الجدران: رياضة... نظافة... ومسابقات شطرنج وتنس وضامة... دورات مهنيّة، ودورات لغة إنجليزية ولغة إسبانية ولغة عربية متقدِّمة... وكانت تتغيَّر الدورات بحسب توفُّر الكفاءات المتبدِّلة بين الإفراج ودخول مساجين جدُد... مسرح... سينما... مدرسة لمحو الأميّة... صفّ للتوجيهي... مكتبة عامة... ومجلة حائط... وانتخاب لجان... وكان يُسمح بدخول الكتب والمجلات والصحف والطعام والملابس والأغطية للمساجين.. وكان فايز يجاهر بأنّ [الفضل في هذا الانفتاح يعود لمدير السجن "العقيد غالب الضمور"... ونقيب المساجين وزعيمهم نبيل جعنيني]. وكان هذا القول يثير غضب وغيرة غلاة السياسيين الذين يغضبون لمديح "السجّان" ويرون فيه استخذاء... بل "عمالة"... ويثير الغيرة من نُبل وحزم رفيقهم

نبيل جعنيني... ولكن، كان لا بدّ من أحدٍ يُجاهر بذلك، ولا بدّ أن يكون هذا الصوت هو صوت "المُحايد" فايز محمود.

غادر فايز محمود السجن بعد 30 شهرًا من المثابرة على القراءة والكتابة والتفاعل الطيِّب مع زملائه. وكتب خلالها (الحقيقة- بحث في الوجود)... تناقشنا في محتواه صفحةً صفحة... كما ناقشناه بعموميّته في إحدى الجلسات الثقافية التي كنّا نعقدها كل أسبوع لمناقشة كتاب قرأناه أو فيلم شاهدناه على شاشة التلفزيون أو قضية عامّة تختلف فيها التأويلات.. فقد كنّا نتمتَّع بأجواء ديمقراطية وتسامُح داخل السجن أفضل بكثير ممّا كانت عليه الحال خارجه، وأفضل ممّا هي عليه الأمور الآن...

ظلّ فايز وفيًّا لزملائه في السجن ولم ينقطع عن زيارتنا، وواظب على مراسلتي حتى خرجتُ من السجن عام 1985... ولا تزال رسائله كامنةً في أرشيفي الخاصّ..

القارات الخمس

سجن المحطّة كان وسط البلد تقريبًا، وسبق أن كان مخفرًا لسكة الحديد وإسطبلًا لخيول الأتراك... ثم صار سجنًا في كنف محطة القطار... والغرف القديمة بها حلقات لربط السجناء قديمًا. ويقع السجن المعروف بـ"سجن المحطة المركزي" اليوم على أرض مساحتها حوالي عشرة دونمات (هُدم السجن عام 1988).

باب السجن يقع في الاتجاه الغربي ويبعد عن الشارع الرئيس أقلّ من مائة متر، وعلى جهة اليمين عندما تدخل إلى السجن تقع الزنازن، ومن كثرة قِدَمها لا يدخلها الهواء ولا الشمس، ثم المكاتب، ثم باب حديد ضخم وشرطة مهمّتها استلام السجين الجديد أو الإفراج عن السجين الذي انتهت مدة حكمِه، بعدها شبك الزيارة، بعدها غرف يسكنها نُخَب المساجين من كبار تجار المخدرات وسارقي المال العام، وبعدها غرفة العيادة، بعدها على اليمين شَبَك رقم(1) السياسيين، ويطلّ الشبك على غرفة الإعدام، ومن الجهة الجنوبية تطلّ الشبابيك على سكة الحديد، وعلى اليسار شبك رقم(2) لقضايا المخدرات، وفيه ملعب السلة والكرة الطائرة. وخلفه شبك رقم(3) وهو شبك (السفارة) للموقوفين الإداريين من صغار اللصوص والنشالين وضاربي الشفرات وأصحاب الجُنَح.. وشبك(4) لقضايا الاختلاس والسرقة والجواسيس. وشبك(5) وهو أحدث أجنحة السجن وساحته واسعة كانت مضمار المشي الدائري للمساجين من كافة الأشباك، ومخصص للعسكريين الذين أُخرجوا من الخدمة لقضايا مختلفة وللفارّين من الخدمة الإلزامية.

يوجد في السجن مصالح حياتية كما في أيّ حيّ من أحياء عمّان الشرقية... أي حلّاق وخيّاط ودكّان ومقاهي متناثرة في الأشباك، المكتبة والسينما في شبك(3)، الملاعب في شبك(2)، المدرسة في شبك(4)، الحلاق في شبك(3)، والخيّاط والفلافل في شبك(1)، وهكذا...

في النهار تشعر كأنكَ في سقف السيل؛ حياة وضجيج، فرغم أنّ لكلّ شبك ساحته الخاصة إلا أنّ التنقُّل مُتاح بين الأشباك والغرف. وفي غرف السياسيين يوجد في كل غرفة مكتبة صغيرة وتلفزيون. في السجن حياة كامله صوّرها فايز محمود في قصة جميلة أسماها (القارّات الخمس) رابطًا بينها وبين قِطاعات السجن الخمسة. نشرها فايز في مجلة الحائط المعلّقة على الطريق إلى "الفورة"- أي الحمّامات... ولا أدري إذا نُشرت هذه القصة في مطبوعة ما لاحقًا... لكن ما أعرفه أنّ فايز كان مهووسًا بالفلسفة ولا يعنى كثيرًا بنتاجه الأدبيّ إلا بقدر ما يعكس رؤاه الفلسفية بعيدًا عن الواقعية!

جوّانيّة فايز محمود

فايز محمود "وجودي" بطبعه وفلسفته... يعيش يومه، بل لحظته، ولا يقيم وزنًا لغير الكتابة والقراءة، وكأنه يعيش في عالمٍ موازٍ... عالم افتراضي لا قيمة للمال فيه. كان وفيًّا لأصدقائه

بإفراط، ومخلصًا فذًا لمشاريعه الكتابية التي كان يقترحها على العالم دون أن ينتظر نتيجة لعمله.
فايز نموذج لمثقف مخلص لجيله من مثقفي الستينات من القرن الماضي الذي شاعت فيه الأفكار الماركسية والقومية والوجودية شيوعًا كبيرًا، واختار فايز الفلسفة الوجودية... بل أظنها اختارته... فهو وجودي بطبعه وليست الوجودية غريبة على تكوينه النفسي المستعد للتأثر كثيرًا بـِ"سارتر" و"باسكال" و"كولن ولسون"... فكوَّن فايز جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة في إطار الرؤية الوجودية للعالم، دون أن تتضح لديه نظرية فلسفية واضحة المعالم، ونظرًا لهذا الاضطراب والتذبذب لم يستطع أن يأخذ مكانه المرجو بين المفكرين العرب، وإن نجح في كسب احترامهم كـ"باحث وجودي علماني مهتمّ بالجمال"...

لكنه من وجهة نظري أشبه بسائح صوفي مترفِّع عن التفاصيل، غير عابئ بأعباء الحياة.

"الالتزام" بحدّه الأدنى لم يكن يلائم شخصية فايز ولا ينسجم مع فكره، فإذا كان "كولن ولسون" كتب "اللامنتمي" فكان الأحرى بفايز أن يكتب "اللاملتزم"، فأحواله في الجملة هي أقرب إلى تلك الأحوال المعروفة عند الصوفية بـ"المجذوب"، ولكنها عند فايز في سلوكه المعيشي والبحثي أقرب ما تكون إلى "دروشة علمانية"... الدراويش يقبلون الأعطيات عن طيب خاطر، أما "الدرويش السائح فايز محمود"... فكان يطلبها، ويسميها "أتاوات" لا للتعالي على المانحين... ولكن ليبرِّر أسلوبه في

العيش الذي يطلق عليه "صراع البقاء". (فكان كسابًا وهابًا بامتياز.. بل بإفراط بحيث إنه كان يأتي من عمّان لإربد كي يستلف ثلاثين دينارًا، ولمّا يحصل عليها يستقلّ تكسي خاص بعشرين دينارًا ليعود إلى عمّان..).

هذا الأسلوب في "مقارعة الطفر" -بحسب تعبيره- هو الذي دفعه لعدّة محاولات فاشلة للانتحار، ومن وجهة نظري فإنّ فايز الوجودي العلماني ليس شخصية انتحارية، بل شخصية مُقبلة على حياة ثرّة نسي مفاتيحها عن طيب خاطر... ناظرًا للعالم كله على أنه شاطئ لبحر فردانيَّته وذاته القلقة، وأنّ الكونَ هامشٌ على متنِ دفتر كتابته العنيدة! ■